اسرائيل ترغم عرباً على بيع أراضيهم، وان جنودها يطلقون النار على النساء والاطفال ؟ تريدني ان ادافع عن الرقابة التي تمنع كتباً شعرية عربية، وان ادافع عن توقيف كتاب ورسامين ؟ كيف تريدني ان اتكلم اليهم ؟ ان اتلوى مثل زانية وان اعترف بأن كل ذلك ليس جميلاً، لكنه لا خيار لنا، وان العرب يكرهوننا!

«... استمر يوئاب بزخم: هذا ابتزاز ! انهم يريدون ان يبدوا ليبراليين بايفادهم كتّاباً يعارضون سياستهم، وان يغلقوا أفواههم بالتبجيلات! لست شخصاً كهذا؛ لست رجل شرح وتفسير؛ وما عندي لأقوله أقوله في كتبي...» (ص ٦٣).

وباسلوب كتابته الواقعية ـ مع ادخال عناصر خيالية في كتابه الاخير هذا ـ كتب بلاص منتقداً، بشدة، سياسة التوسّع الصهيونية: «تحوّلت اسرائيل الى ملجأ لكل الزبل اليهودي!» (ص ١٤٢). واعترف، في صفحات الكتاب الاخيرة، بأن الطريق ما زالت طويلة لتصليح الاخطاء المريعة التي ارتكبتها الصهيونية بحق المنطقة، وبحق أبنائها، كتب: «نحن مكملو طريق الطلائعيين الذين بنوا وحققوا الانجازات. أي، نحن الورثة. وهذا ما يسمى معاناة الوارثة. لم نرث افعالاً طيبة فقط، وانما مصائب ايضاً. بيدٍ بنوا، وباليد الثانية هدموا. هذا هو الميراث الذي حصلنا عليه؛ وما علينا الا ان نصلّح اخطاء الماضي» (ص ١٤٤). وليس صعباً علينا ان نستنتج من كل هذه الاقتباسات مدى خيبة بلاص الشديدة من الصهيونية. ويتركز هذا الشعور بالذات في شخصية «داني» الذي يقوم بسرقات وجرائم للانتقام من مجتمعه. وداني هو شرقي، أهملته المؤسسة الاشكنازية، وتفجّرت قواه وقت نشوب الحرب الاسرائيلية على لبنان، وتحوّل الى مارق على المجتمع، وصار يمينياً، صار يرى في الاستيطان حلاً ايجابياً. وداني، بمعنى آخر، هو الجيل الشاب الذي نشأ وتربّى في زمن الاحتلال، ويمينيته تتحوّل الى خطر، حين تتسلّم شخصيات مثله الحكم في المستقبل.

ان شخصيات بلاص المتورطة، والمتعبة، بسبب ضغوط الاحداث الخارجية (كالحرب والاحتلال وتفجر الازمات والتمييز بين الاشكنازيين والشرقيين) تقود ابطاله الى تبني الحلول الوجودية، وذلك لعدم استجابة الواقع لمتطلبات حيوات هؤلاء الاشخاص الاساسية؛ وفي كل هذا التحوّل ـ من البطل الايجابي الى البطل السلبي ـ نرى ان بصمات الواقع القاسي هي التي ترسم صورة هذا التحوّل، شيئاً فشيئاً، الى درجة تتحوّل شخصية البطل «داني» الى شخصية سلبية تماماً، وخطرة جداً على المجتمع.

رياض بيدس